تفسير القرآن الكريم

من سورة المزمل

« إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ(١) اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ(٢) فَتَابَ عَلَيْكُمْ(٣) فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ(٤) يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ »

(١) يقدر : يحسب ٠ (٢) لن تحصوه : هنا بمعنى لن تصلوا الى الغاية من عبادته أو لن تطيقوه ٠

(٣) فتاب عليكم : هنا بمعنى خفف عنكم وتسامح معكم ٠

(٤) الضرب في الأرض : كناية عن السعي في سبيل الرزق ٠

والجمهور على أن هذه الآية مدنية٠(١) والمصحف الذي اعتمدنا عليه ذكرها كذلك وطابع المدنية عليها واضح مثل ذكر القتال في سبيل الله الذي انما كان بعد الهجرة ، ومثل تعبير اقراض الله الذي لم يرد الا في الآيات المدنية حثاً على الانفاق في سبيل الله ، ونظم الآية المخالف لنظم آيات السورة ، وطولها قل أن يكون في غير الآيات المدنية ٠ ويلحظ أن هناك مناسبة بين موضوع الآية وموضوع الآيات الأولى من السورة ٠ فقيام الليل موضوع مشترك بينهما ٠ وفي الآيات الأولى الزام به وفي هذه الآية تخفيف ٠ وفي هذا صورة من صور التاليف القرآني وخاصة في وضع الآيات المدنية في السور المكية ، والذي نعتقد أنه كان

---

(١) انظر تفسير الآية في تفسير الآلوسي والخازن النيسابوري والطبرسي ٠

يتم بأمر النبي عليه السلام وفي حياته (٢) ·

ومعنى الآية مفهوم لا يحتاج الى شرح · وتنطوي على صورة من صور حياة النبي عليه السلام وأصحابه الأولين التعبدية · فالنبي ظل في حدود ما لزمه من قيام قسم كبير من الليل والتهجد فيه وتلاوة القرآن اتباعاً لأمر الله في الآيات الأولى من السورة · وأصحابه الأولون حذوا حذوه في ذلك كما تذكره الآية ، وكما تدل عليه آيات في سورة الذاريات وهي « كانوا قليلا من الليل ما يهجعون · وبالأسحار هم يستغفرون» (١٧،١٨) واستمر هذا في العهد المدني أيضاً على ما تدل عليه الآية ، فلما نما عدد المسلمين وكثرت مشاغلهم وواجباتهم في هذا العهد اقتضت الحكمة التخفيف تمشياً مع الظروف والمصلحة وطبائع الأمور · فنزلت الآية وألحقت في السورة التي أمرت آياتها الأولى بقيام قسم كبير من الليل وفي هذا مشهد من مشاهد التطور في التكليف والتشريع كما هو واضح · وفيه تلقين جليل فالأحكام تتبدل بتبدل الظروف· والشريعة الاسلامية تتمشى مع المصلحة المشروعة المعقولة والله لا يكلف الناس في عبادته الا المستطاع الذي لا يكون فيه مشقة وضنى ، **ولا يسبب أهمالا وانصرافاً وعجزاً عن الواجبات المشروعة الأخرى شخصية كانت أم عمومية · فالله يعلم أن الناس مهما حرصوا واشتدوا في العبادة فلن يوفوا الله حقه ولن يبلغوا الغاية · وان منهم المريض ومنهم الساعي في سبيل الرزق والمرابط والمقاتل في سبيل الله · وكل هذه واجبات وأعذار** مشروعة للتخفيف · ومثل هذه التلقينات قد تكرر في القرآن بأساليب متنوعة على ما سوف نشير اليه في مناسباته ·

وننبه على أن هذا التلقين وأمثاله يبقى في نطاق ما لم يرد فيه نص قرآني أو نبوي ثابت قاطع وصريح ، وفي نطاق الرخص الصريحة ومدى التسهيلات القرآنية والنبوية الثابتة·

تعليق على الزكاة

وبمناسبة ورود كلمة « الزكاة » لأول مرة هنا ولو في آية مدنية نقول ان أصل الكلمة زكا بمعنى نما وطاب · وقد وردت الكلمة في القرآن بمعنى التطهير أو مرادفة له مثل ما جاء في آية سورة البقرة هذه « كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون » (١٥١) وفي آية سورة التوبة هذه « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » · (١٠٣) واطلاقها على الصدقات مجازي يراد به أنها مطهرة أو منمية للمال · ونرجح أنها كانت تستعمل في هذا المعنى قبل البعثة بدليل ورودها به في آيات مبكرة جداً مثل آيات سورة الليل هذه « وسيجنبها الأتقى · الذي يؤتى ماله يتزكى » (١٧ ، ١٨) على اعتبار أن القرآن نزل بلسان عربي مبين ، وكل ما فيه بهذا اللسان الذي

كان هو لسان العرب وأهل بيئة النبي قبل نزوله(١) · غير أنها صارت علما على الفريضة التي فرضت على أموال الأغنياء للفقراء والمحتاجين وسبل الخير ومصلحة المسلمين العامة· ونرجح أن هذه العلمية كانت مفهومة لها منذ عهد مبكر من الدعوة الاسلامية ولو لم ترد كذلك الا بعد مدة غير قصيرة من البعثة ، أي في آية سورة النمل هذه « الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون » ٣) التي نزلت في أواسط العهد المكي أو حدودها على ما يخمن، وأنها كانت مفهومة بأنها غير الصدقات التطوعية التي ظل القرآن المكي ثم المدني يحث عليها الى جانب الزكاة المفروضة · والمتبادر أن الحاجة كانت ماسة الى هذه الفريضة منذ بدء الدعوة سواء أكانت من أجل أغراض هذه الدعوة أم من أجل مساعدة الذين آمنوا من الفقراء والمساكين والأرقاء الذين كانوا أكثرية أتباع النبي عليه السلام في مكة ولعل نواة هذه الفريضة في آية سورة الليل التي أوردناها · وهذه السورة من أوائل ما نزل من القرآن، لأن فيها عرضاً لمبادىء الدعوة دون جدال ولا حجاج · وليس في القرآن المكي ولا المدني مقدار محدد للزكاة · وانما حد ذلك بتشريع نبوي · غير أن آيات في سورة المعارج المكية وهي هذه « والذين في أموالهم حق معلوم · للسائل والمحروم » (٢٤ ، ٢٥) يمكن أن تدل على أن النبي عليه السلام قد حدد مقادير الزكاة في العهد المكي وربما في عهد مبكر منه ، لأن الحاجة كانت ماسة اليها منذ البدء · ومع أن مصارف الزكاة قد ذكرت في آية من آيات سورة التوبة هذه « انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » (٦٠) · التي نزلت في وقت متأخر من العهد المدني فأن اسلوبها والسياق الذي جاءت فيه يلهمان أن المصارف كانت مما جرى عليه قبل نزولها ، وبالتالي أنها تشريع نبوي ثبت في هذه الآية · وقد ذكرت بعض هذه المصارف بألفاظها في احدى آيات سورة البقرة المبكرة في النزول في العهد المدني وهي « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه · ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب ·· » (١٧٧) ·

والزكاة في الآية التي نحن في صددها قرنت الى الصلاة · وهذا تكرر في معظم الآيات التي ذكرت فيها الصلاة · وفي هذا القرآن من جهة وفي جعلها من صفات المؤمن الرئيسية كما جاء في آية سورة النمل التي أوردناها قبل وكما جاء في آيات سورة المؤمنون هذه « قد أفلح المؤمنون · الذين هم في صلاتهم خاشعون ·

---

(١) انظر فصل الحياة العقلية في كتابنا عصر النبي عليه السلام وبيئته قبل البعثة ·

والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون » (١ ـ ٤) وغيرهما وبعبارة أخرى في جعلها عنوانا من عناوين الايمان وركناً من أركان الاسلام من جهة ثانية توطيد لمبدأ المعونة المالية للمحتاجين اليها وللمصالح العامة بصورة الزام وفرض ، وعدم ترك ذلك للتطوع والاختيار .

ولعل فريضة الزكاة بهذه الصفة من أعظم التشريعات الاسلامية سعة مدى وأثراً في صلاح المجتمع الاسلامي وتضامنه ، وتخفيف أزمات بنيه ومحتاجيه ، وتقليل أسباب الأحقاد والضغائن والحسد بين المحتاجين ، وغير المحتاجين ، وتيسير تغذية المشاريع العامة التي لا تقوم الا بالمال . وهي من أعظم مميزات الشريعة الاسلامية على غيرها ، على هذا الاعتبار والمعنى ومن أعظم مرشحاتها للخلود .

ومن الجدير بالذكر في هذا المقام أن القرآن احتوى الى جانب فريضة الزكاة آيات كثيرة فيها حث على التصدق على الفقراء والمساكين والمحتاجين والانفاق في سبيل الله بأسلوب يلهم أن المقصود منها صدقات تطوعية زيادة على الفريضة على ما سوف ننبه اليه في مناسباته حيث يزداد بذلك قوة التلقين القرآني وسعة مداه .

وآية التوبة التي أوردناها صريحة الدلالة على أن النبي عليه السلام هو الذي كان يجبي الزكاة بواسطة عمال يعينهم وينفقها على مصارفها في ما يراه من مصلحة وحاجة وظرف . وقد كان النبي عليه السلام يمثل بذلك سلطان الدولة في الاسلام . وهذا يسوغ القول أن سلطان الدولة في الاسلام هو صاحب الحق في جباية الزكاة وانفاقها في حدود ما رسمه القرآن والسنة النبوية الثابتة (١) .

وتعبير « وأقرضوا الله قرضاً حسناً » هو كما يتبادر تعبير استحثاثي على الانفاق في سبيل الله والتصدق على المحتاجين وقد تكرر في آيات مدنية عديدة . وفيه معنى لطيف يزيد في قوة الحث وهو أن الذي ينفق أمواله في سبيل الله ويتصدق بها على المحتاجين كأنما يقرض الله وأن الذي يقرض الله يستحق الوفاء أضعافاً مضاعفة . وهذا ما ورد في آيات عديدة مثل آية سورة البقرة هذه « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط واليه ترجعون » (٢٤٥) ومما يتبادر لنا أن هذا التعبير منصب في الدرجة الأولى على الصدقات التطوعية على اعتبار أن الزكاة فرض الزامي وما زاد عنها فهو قرض حسن لله .

تعليق على تعليم الاستغفار

ولقد انتهت الآية بطلب استغفار الله . والغفران في الأصل بمعنى الستر والوقاية . ثم صار بمعنى التسامح والاغضاء عن الذنوب .

(١) اقرأ بحث النظام ا لمالي في كتابنا الدستور القرآني في شؤون الحياة .

والمرجح أنه كان بهذا المعنى قبل البعثة أيضاً .

وفي الأمر تلقين رباني بأن الله يعلم أن أكثر الناس لا يمكنهم أن يكونوا في نجوة من الهفوات والأخطاء، وأنه هو الغفور الرحيم الذي من شيمته التسامح والاغضاء وشمول عباده بالرحمة الواسعة اذا آمنوا به واعترفوا بذنوبهم وندموا عليها ولجأوا اليه يطلبون غفرانه ورحمته . وفي هذا ما فيه من التلقين والوسيلة الى الصلاح والاصلاح ، وحث المذنب على الندم والتوبة وتأميل بالغفران والرحمة ، وبعبارة أخرى فيه وسيلة من وسائل التربية الروحية .

تعليق على تعبير سبيل الله

وتعبير « سبيل الله » يأتي لأول مرة في الآية التي نحن في صددها وان كانت مدنية . ولقد التبس مفهومه بحيث صار كثير من الناس يظنون أنه الجهاد ووسائله ، لأنه جاء كثيرا في آيات الجهاد ، غير أن امعان النظر في هذه الآيات يكشف أنه غير الجهاد وأنه أعم منه وأن الجهاد بالمال والنفس انما شرع لأجله ، وأنه في الحقيقة مرادف لمعنى طريق الله ودعوته ودينه وتعاليمه الايمانية والاخلاقية والاجتماعية والانسانية والسياسية والتهذيبية التي احتواها القرآن وهدى اليها الرسول صلى الله عليه وسلم وبعبارة ثانية انه الدعوة الاسلامية نفسها . واذا كان تعبير سبيل الله اقترن في القرآن كثيراً بالجهاد فلا يعني هذا أن الجهاد قد شرع لنشر الدعوة الاسلامية . فالقرآن قد وضع خطة محكمة للدعوة الى سبيل الله كما جاء في آية سورة النحل هذه « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » (١٢٥) وفي القرآن آيات كثيرة مكية ومدنية تتسق مع هذه الخطة . وقد ظلت خطة النبي صلى الله عليه وسلم في عهديه المكي والمدني ثم خطة خلفائه من بعده . أما الجهاد فقد شرع لضمان حرية الدعوة ومنع تعطيلها والصد عنها ، ودفع الأذى عن المسلمين وحمايتهم مما احتوى القرآن كثيراً من الآيات في صدده سوف نشرحها في مناسباتها .